مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255
المجلد5،العدد2 – ديسمبر 2018

OEB Univ. Publish. Co.

إشكالية المخيال الاجتماعي في الفضاء العمومي الافتراضي.

The Problematic of the Social Imagination in the Public Virtual Space

أ.د.أنور مقراني*، جامعة سطيف2، الجزائر.
anouar01dz@yahoo.fr
د. العمري عيسات. جامعة سطيف2، الجزائر.
aissat.lamri@yahoo.fr

تاريخ التسليم:(2018/04/03)، تاريخ التقييم:(2018/06/18)،تاريخ القبول:(2018/08/24)

ملخص :

تقتضي التحولات المجتمعية التي يعرفها عالمنا العربي،البحث في الأشكال الاجتماعية والأخلاقية التي تتمأسس اليوم لأجل تشكيل الفضاءات الجديدة التي يجتمع عليها الجمهور. فالتشابكات والتنازعات والاتفاقات التي تحصل في الفضاء العمومي تتمدد اليوم إلى العالم الافتراضي الذي صار الأكثر جذبا للفرد. فتنامي النزعة الرقمية في جميع مناحي الحياة ولدت اندفاعا غير مسبوق لاستخدام الوسائط الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي لأجل الانخراط في عولمة التواصل. وبذلك فإن أخلقة الفضاء العمومي الافتراضي الذي أصبح سلطة موازية ومهددة للنظام الاجتماعي. يفترض معاودة ترتيب وتدخل حتى يصبح التداول والتواصل منتجا لوعي أمة واقعة اليوم في خطر تفكيك الهويات.

الكلمات المفتاحية: المخيال الاجتماعي؛ الفضاء العمومي؛ التواصل؛ الضبط الاجتماعي.

Abstract :

The societal transformations known to our Arab world require research into the social and ethical forms that are being established today to form the new spaces upon which the public meets, The entanglements, conflicts and agreements that take place in public space today extend to the virtual world, which has become the most attractive to the individual, The growth of digitalism in all walks of life has generated an unprecede

nted surge in the use of electronic media and social media to engage in the globalization of communication. Thus, the creation of the virtual public space, which has become a parallel and threatened authority of the social system. It is supposed to re-arrange and intervene so that circulation and communication becomes a product of the consciousness of a nation that is today at risk of dismantling identities.

Keywords: social imaginary, Public space, Communication, social control

* المؤلف المراسل: د.أنور مقراني، الإيميل: anouar01dz@yahoo.fr

مقدمة:

يشهد العالم العربي والإسلامي في السنوات الأخيرة، تحولات عميقة على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فتنامي الاحتجاجات، تصاعد الهويات الدينية والطائفية والعرقية، اهتزاز التراتبات الاجتماعية، تشكل جيلي جديد،...إلخ كلها مظاهر تؤشر لعمق أزمة إجماع، يضيق الفضاء العمومي التقليدي عن استيعابه ومن ثم التخفيف من وطأة مطالب المواطنين. هؤلاء الذين يعيدون بناء فضاء عمومي آخر، بعيدا عن رقابة الدولة، هو فضاء كوني، هوياتي، مفتوح جاذب للتنازعات والتشابكات الفردية والجامعية. وبهذا المنطق فهو يؤسس لنقدية تبدو فردية ، سرعان ما تتحول إلى حشد، أثبت في كثير من البلدان انه قادر على خلخلة مؤسسات الدولة.

إن تنامي النزعة الرقمية في جميع مناحي الحياة ولدت اندفاعا غير مسبوق لاستخدام الوسائط الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي لأجل الانخراط فيما يسمى بعولمة التواصل والثقافة. وبذلك فإن أخلقة الفضاء العمومي الافتراضي تلزم الباحثين كما جمهور النخب(الدينية والسياسية والاقتصادية) إلى ضرورة التنبه إلى أنه مُتفلّت اليوم من المبادئ والقيم والمعايير التي تضبط التفكير والتواصل لمختلف الفاعلين. وهذا الحذر الذي ينبغي أن نعيه اليوم هو أن يصبح الفضاء الافتراضي سلطة موازية ومهددة للنظام الأخلاقي الإسلامي ككل. وعليه فإن إعادة الترتيب للفضاء العمومي إنما هو محاولة لأخلقة الجمهور المسلم أفرادا وجماعات ومنظمات، كي يصبح التداول والتواصل منتجا لوعي أمة واقعة اليوم في خطر تفكيك الهويات.

إن هدف البحث هو استخلاص المعاني التي تختفي وراء الحدث الاجتماعي. فالموضوعات التي يتم تداولها والتواصل بها بين الأفراد، والتي تفترض التعرف على تلك البنى الذهنية التي تشكلت في العالم الواقعي، وقدرة تلك الهويات على تجنيد مرجعيتها لأجل التبادل المتكافئ في الفضاء العمومي.

مشكلة الدراسة:

تمثل وسائل التواصل الاجتماعي في عالمنا الإسلامي إحدى أهم سمات القرن الواحد والعشرين، حيث تسجل الإحصائيات الدولية تزايد عدد المشتركين بالانترنت في الأسر العربية خصوصا والإسلامية عموما، وأيضا تزايد عدد مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي. وقد تبدو للوهلة الأولى أن مثل هكذا تحول علائقي واجتماعي للإنسان المسلم إنما هو دلالة على دخول العولمة والحضارة الإنسانية التي لطالما تدعو إليها مختلف الاتجاهات الفكرية والتنظيرية الغربية لأجل الادعاء بعالمية التكنولوجيا والتحول العالمي على جميع الأمم والحضارات.

إن المفارقة التي تهمنا اليوم هي كون شيوع استخدام مواقع التواصل الاجتماعي تزداد بكثرة لدى جميع الفواعل الاجتماعية التي تدخل في هذا المجال السائل كي تستحيل معه هويتها وثقافتها. ذلك أن هذا الفضاء الافتراضي هو جاذب ومُدمج في آن واحد لجميع الهويات أيا كان عاملها الديني أو السياسي والتاريخي الذي تنتمي إليه. فالفضاء العمومي الافتراضي ليس فقط لأجل التواصل الإنساني أو حتى العلمي، ولكنه أيضا مولّد جديد لهوية عالمية تستهدف إعادة التشكيل الفكري وأيضا الذهني للمخيال الاجتماعي الإسلامي للفرد المسلم وللجماعة المسلمة.

فشيوع التقييم الذاتي والتصريح النقدي للرؤى والاعتقادات وإلصاق الكثير من الأفكار بهذه وتلك الشخصية الدينية أو الفكرية أو السياسية،... إنما يجعل عقل المسلم يضيع في ما يسمى الشك التاريخي والفكري. بحيث يتم إقصاء كل ما هو مقدس عند تناول المشتركات الدينية الإسلامية والتي تصير أكثر إنسانية قابلة للنقاش ومن ثم الهدم والتجاوز.

إن تفلّت المجال العمومي الافتراضي عن النظام الاجتماعي العام، يستدعي من النخب الحاكمة وأيضا المؤسسات الدينية والأهلية ضرورة إعداد صياغة مفهومية وإجرائية لهذا المجال. فإذا كان مجتمع القرن العشرين وما قبله يعتمد في ديناميكيته على فكرة المجال العمومي الذي تشكله وتنظمه الدولة والمجتمع الأهلي بحيث يدعم إشاعة الجماعية والسلم والانتماء والولاء، بما يساهم ذلك في دعم سيطرة الدولة على السياق السياسي، كما أن المؤسسة الدينية استطاعت أن تجنب المجتمع الكثير من المهالك المتعلقة بالانحراف، الإلحاد، التطرف، عدم احترام النظام العام، اللاستقرار،... كل هذه المفاهيم نجدها اليوم محل نظر آخر، فتراجع الفضاء العمومي المدرك الذي توجد عليه الدولة والقوى الاجتماعية والذي يُعرف من خلال الضبط القانوني والاجتماعي والقبول العام لدى الأمة–الشعب. نشهد في الوقت الحالي انفلات هذا الفضاء العمومي من أيدي الدولة وإبداله بفضاء افتراضي مستقل تلتقي فيه الذوات والجماعات لأجل خلق علاقات وتصورات ومجتمع يقابل بل ويناهض الجماعة المسلمة التي تتشكل في الواقع.

عطفا على ما سبق ستكون ورقتنا العلمية متوجهة إلى البحث في إشكالية الفضاء العمومي الافتراضي وعرض الأسس التي يقوم عليها، ومن ثم التوجه إلى محاولة إعطاء تصور حول الضرورات التي يجب أن يضبط فيها هذا الفضاء ليس بالمعنى الذي يحد من حريته وتجمعه، ولكن أيضا من خلال الاتفاق والإجماع بين مختلف البنى الاجتماعي التي تصيغ القواعد وتضبط الشبكات التي يلجها المواطن المسلم. وهذه العملية التي لا نعدها خاصة بالدولة والأجهزة الحكومية ولكن أيضا لا بد أن تتحول إلى عملية مجتمعية واعية تقودها الجماعات المنظمة كمثل المجتمع المدني وفي مقدمته المؤسسة الدينية

التي هي مطالبة بتشكيل النظام الأخلاقي للمجتمع المسلم وفق خصوصيته الثقافية والحضارية، والذي نراه لم يتمأسس اليوم في مجتمعاتنا العربية والإسلامية، بالنظر إلى الوضعية الاستقلالية من الاستعمار والهيمنة التي جرت في القرن العشرين (كانت أولوية الدول الوطنية)، حيث تمّنعت النخب والقوى الدينية والاجتماعية من التفكير في كيفيات صياغة نظام أخلاقي يعزز حضور الضوابط الإسلامية في جميع المعاملات الإنسانية والاقتصادية والسياسية، والثقافية.

أولا–المجال العمومي: قراءة في المفهوم:

يشغل مفهوم الفضاء العمومي في الأوساط الفلسفية والسوسيولوجية حيزا كبيرا من النقاش، ولا بد من القول أن حضوره في هذه الأدبيات ليس جديدا، كونه كان محل اشتغال كثير من فلاسفة عصر الأنوار وحتى القرن العشرين(كانط، هيجل، أوجست كونت وماركس وفيبر ودوركهايم والآخرين). فالتغيرات التي حصلت في بنية النظام الاجتماعي العام (Ordre) نتيجة التحولات الفكرية والاقتصادية وحتى الدينية، نزعت من الدولة إمكانيات التدخل في الشؤون الفردية والجماعية، ما انجر عنه توسيع فئات اجتماعية(البرجوازية) هيمنتها على الفضاء العمومي للدولة في السياقات المجتمعية المختلفة (جمعيات خيرية، أحزاب، نقابات،...). هذا التمدد السوسيواقتصادي، تبعه أيضا تمدد فكري من نوع آخر استهدف إحاطة هذا التحول بالتنظير الفكري، وعليه تأسست رؤية اجتماعية تسندها النظرية النقدية اختارت المنحى المتعدد التخصصات لفهم حالة الواقع المتحولة والمتغيرة اجتماعيا وسياسيا وثقافيا.

وعلى هذا الأساس السياسي والاجتماعي تبلورت في القرن العشرين نظرة أكثر تجديدا لمفهوم الفضاء العمومي الذي يتداخل"فيه الفعل السياسي لتأطير الممارسة السياسية بواسطة الدعاية لتوجيه الرأي العام وجهة العمومية، بالفعل التواصلي، وهنا تصير العمومية معيارا لكل تفكير يحكم أي فعل إنساني في الزمان والمكان، وكل قضية من قضايا الشأن العام: كالعدالة والحق والسلطة والقوة والواجب والشرعية والمشروعية...إلخ، والفعل التواصلي وما يفرضه من أخلاقيات للمناقشة والتداول من أجل الإجماع والتنازع"(العلو.2014، ص.2).

والتفكير في الفضاء العمومي إنما هو أيضا تفكير في صيغة الوجود الإنساني واشتراطاته التاريخية والاجتماعية في الواقع، من هنا فإن وظيفة الفضاء العمومي وفقا للرؤية الغربية هي العمل على اندماج الفرد في المجتمع، وتحفيزه على المشاركة في الحياة المجتمعية العامة والسياسية. ومنه فإن هذا المواطن من خلال هاتين الوظيفيتين سيؤدي دوره في تعزيز الديمقراطية من خلال السلطة السياسية. وبهذا يتعرف الفضاء العمومي من الناحية الاجتماعية بأنه "المجال الرمزي الذي يتم فيه تدبير تناقضات 'مجتمع الجمهور الفرداني'"(Dacheux, 2000).

ينطلق هابرماس من تعريف الفضاء العمومي على أنه "الجمهور، باعتباره حاملا لرأي عام ذو مهمة نقدية"(Habermas, 2006, p.10)، وأن الدولة والأجهزة الحكومية تسعى إلى تنظيم هذا الفضاء من خلال البرامج الفوقية وبالجهاز البيروقراطي الذي يوجه وينظم مساهمات المواطنين أفرادا كانوا أو جماعات. على أن هذا التدخل الحكومي يصطدم بتدخل الإعلام وأجهزته التي تسعى من خلال الدعاية إلى قولبة ونمذجة التصرفات الفردية والجماعية ومن ثم خلق رأي عام يخدم أدلجة معينة. في إطار هذا الصدام بين الدولة ووسائل الإعلام يبرز هدف إقحام الجمهور في عملية التشابك والتضاد التي قد تخرج المواطنين من المعقولية في قراءة الشؤون العامة إلى محاولة التنصل التام أو الجزئي من الأطر والضبط العام الموجب للاستقرار الاجتماعي والسياسي والثقافي.

ثانيا–شبكات التواصل الاجتماعي وأشكلة الفضاء العمومي الافتراضي:

نلحظ اليوم أن وسائل التواصل الاجتماعي التي يجري تعميمها في المجتمع المعاصر، تتفلّت شيئا فشيئا من قوة الضبط الدولاني والحكومي، بحيث تصبح أدواتها المحاججية والإقناعية والإيديولوجية مناسبة لافتكاك أكبر مساحة من الفضاء العمومي وأيضا صناعة وإعادة تشكيل للرأي العام للجمهور. كما أنها تعمل على توجيه التصرفات بما يخدم المصلحة الخاصة بها أو الجماعات التي تقف وراءها.

وعليه فموضوعات الفضاء العمومي الافتراضي لا نُعدها فقط تلك السرديات والخطابات والصور والمظاهر التي تقع تحت سطوة التبادل بين المواطنين في مواقع التواصل الاجتماعي، ولكن علينا أن نضع في الحسبان الأشكال التي يتبدى فيها الفضاء العمومي في هذا الوسط. فمن الناحية السياسية منحت الحرية غير المقيدة والمتفتحة حتى الفوضوية في مواقع التواصل الاجتماعي الجمهور متنفسا من جهة، ولكنها من جهة أخرى عززت خطورة غير منظورة على هيبة الدولة وشخصياتها وبرامجها. ذلك أن الأمر لا يتعلق بإصدار أحكام بقدر ما هو تشكّل لحكم لا يُعرف المستوى النخبوي لأصحابه. فالخلط الواقع في مفهوم المشاركة والنقد السياسي لا يعني الهدم والتقويض للمؤسسات القائمة أو الإيعاز بمواتها الواقعي لدى الجمهور. في حين أن المشاركة تعني جعل الفكرة قابلة للنقاش والتبادل والمحاججة، وأيضا لا ينبغي فصل الفكرة عن أطرها الثقافية والاجتماعية والأخلاقية. بكلام آخر ليس من المناسب بأي شكل من الأشكال فهم الحرية والمشاركة السياسية على أنها عنوان للأنوميا(الفوضى الأخلاقية)، بل بالعكس إن الضوابط المعيارية موجبة وحارسة لمثل هكذا انفلات مشبوه للمواطنين.

من جانب آخر قد يتبدى الفضاء العمومي من خلال خاصيته الاجتماعية حيث أن البنى الاجتماعية وهندستها وخاصياتها التعليمية والثقافية وعناصرها الانصهارية والتفكيكية(القبيلة، العصبية، الجيرة، ...)، ينبغي تعريفها عند تناول الفضاء العمومي الافتراضي، وتبدو هذه المسألة غاية في الأهمية

لكون الخاصية التي يتعرف بها هذا المجال في عالمنا الإسلامي وحتى في بعض الدول المتخلفة هي الشبحية التي ترفض التصريح والكشف عن هويتها الحقيقية. وهذا الأمر يمنع ويحد من الخطط التي قد توضع لأجل تنمية هذا المجتمع الافتراضي وبالتالي توجيهه بهدفية نحو السياسات الحكومية والاجتماعية.

أما المجال الاقتصادي فهو اليوم أحد أركان الفضاء العمومي الافتراضي، فلا يمكن أن ننظر إلى مواقع التواصل الاجتماعي نظرة تجرده من خاصية الاستهلاكية المادية البحتة. فنموذج التبادل المعروض والطريقة التي يجري فيها هذا التبادل إنما تجعل المواطنين يستشعرون من جهة الهيمنة الإيديولوجية للسلع والكيفيات التي تهندس بها الرؤية للحياة.

أخيرا لا بد من القول أن موضوعات الفضاء العمومي تحتاج الإيتيقا والأنطولوجيا اللتين تنظمان أخلاقيا ومعياريا كيفيات التبادل بين المواطنين في الفضاء العمومي، "فوجود الفرد داخل الفضاء العمومي هو وجود الكائن داخل مجال مؤسس على مبادئ ومحكوم بقيم حارسة للإنسانية...فلا معنى للفضاء العمومي ما لم يكن مجالا لممارسة المواطنة والفعل السياسي الديمقراطي المبني على الحوار وتبادل الآراء وصياغة الرأي العام المضاد للسلطة في اتجاه بناء قوة مضادة للدولة"(العلوي، 2014، ص.9).

في الوقت عينه، نشير بشيء من التركيز على أن الفضاء العمومي يحتاج التواصلية التي يتم فيها حصر الأطر التفاعلية للأفراد، وأيضا تربيتهم على طرائق الحوار والجمل والكلمات والمعاني والرموز التي يجري إعمالها خلال التبادل الاجتماعي في الفضاء العمومي. وبهذا فإن هابرماس يقول "أن الفهم الإيتيقي والسياسي لما نبتغيه في الحياة باعتبارنا أعضاء في الجماعة الخاصة، محكوم بالتوافق مع المعايير الأخلاقية. فالمجادلات لا بد وأن تتمأسس على تبادل الحجج، وأن تقود إلى توافقات ولائية،...وبالنتيجة تفتح إمكانية الترابط الإميبريقي والسوسيولوجي للاعتبارات المعيارية"(Habermas, 1992, p.181).

من المفيد بعد كل هذا التحليل، أن نُساءل الفضاء العمومي، هل هو في تمدد لجميع الموضوعات أم أنه في حال تشكل جديد؟ من الناحية الديناميكية الاجتماعية يمكن القول أن الفضاء العمومي يتمدد على المستوى الدولاني خصوصا مع شيوع الثقافة الليبرالية في العالم، كما أن البنى الاجتماعية المنبهرة من حالة التقدم للدول الغربية تسعى إلى تأسي منطوقات ومفردات التنمية من خلال الديمقراطية. إلا أن هذه الحالة التي تعرفها بعض الدول في الخمس سنوات الأخيرة تدعوا إلى قراءة موضوعية لحالة التشظي والتشرذم للقوى الاجتماعية في هذا الفضاء. هذا الأخير لم ينضج بالقدر الذي يسمح باستيعاب كل الفواعل الاجتماعية والثقافية والسياسية، حتى تتم عملية التبادل التواصلي، بحيث أن مواقع التواصل الاجتماعي تصبح أمكنة مفضلة لاستنساخ الفوضى والصراع القيمي المصطنع، والنتيجة أن الهويات

الفردانية والجماعية لما هو مشتت تتجاوز وتقوض القواعد والمعايير التي تحكم الفضاء. وفي هذا الإطار تحضر فكرة استشرافية **لهابرماس** حول الفضاء العمومي وعن حالته المستقبلية، إذ يقول أن جمهرة التواصل وانفتاح الفضاء العمومي على فئات تمتاز بضعفها التعليمي ستكون السبب الأصيل لفقدانه "الإذاعة، السينما والتلفزيون تقوم بالقضاء جذريا على المسافة التي ينبغي على القارئ أن يلاحظها عندما يقرأ نصا منسوخا. المسافة التي ...كانت تعد شرطا ضروريا لمجال عمومي يمكنه من التبادل التفكيري على ما قرأنه آنفا"(Habermas, 1993, p.178).

ثالثا–المخيال الاجتماعي الإسلامي: الموضوع والاختلاف في شبكات التواصل الاجتماعي:

المخيال الاجتماعي كمفهوم ليس حديث النشأة في الأدبيات الفلسفية والسوسيولوجية، ولكنه اليوم من أهم الصياغات الأكثر استعمالا لدى فريق كبير من الباحثين والمفكرين المشتغلين بالظاهرة الدينية والثقافية، وهو "يشير لمواقف جديدة، قيم ومعاير، تحديد اجتماعي جديد للواقع وللكائن" (Castoriadis, 1986, p.136). وهو أيضا " مجمل التصورات وأشكال الوعي التي يبنيها الفاعلين الاجتماعيين في إطار مجتمع محدد بنسق رمزي وثقافي خاص به وهو الآلية التي يستعيد بها الأفراد ذواتهم التاريخية بهدف إنتاجها وإعادة بنائها في صورة جديدة قد تظهر في سلوكاتهم الحاضرة أو توقعاتهم المستقبلية"(مناد، 2005، ص.68).

وقد استخدم **شارل تايلور** مفهوم المخيال الاجتماعي للدلالة على أنه فهم للذات وللمجتمع، وكرصيد للممارسات التي يتبناها أعضاءه، وهو بكلام آخر "كل ما يجعل الممارسات الاجتماعية الممكنة ذات معنى"(Taylor, 2004, p.2) .

أما **بيير بورديو** فقد قدم المخيال الاجتماعي من خلال تمييزه بين التمثلات الذهنية والتمثلات الموضوعية. بالنسبة للأولى فهي تعني التقدير والتفضيل، المعرفة والتعارف التي يقيمها الفاعلون حول الصيغ المختلفة للهوية، فعندما تكون هاته التمثلات مشتركة من قبل الجماعة يمكن الحديث عندئذ عن المخيال الاجتماعي"(Bourdieu, 1982, pp.139-140). وعلى هذا الأساس فإن كل وضعية هوياتية تترجم من خلال التشكيل الذهني للصور، الخطاب، الأشياء، الشخصيات، الذين يكتنزون جانبا من السلطة الرمزية التي تستثير فكرة الاشتراك لدى فئة اجتماعية. ومفهوم السلطة الرمزية هنا مثير للدهشة عند **بورديو**، لأنه لا يعني الصورة النمطية لفرد مُسيطِر وآخر مسيطَر عليه، فهي "تحض على الجوهري ومتخفية تحت اقتضاء التافه، ويرسخ قدرتها السرية على الإقناع في الذهن، وذلك من خلال أوامر تافهة [السلطة الرمزية كما يفهمها بورديو] تستمد قوتها مما تعتبره سلطانا للمعنى ينبغي أن يتم الكشف عنه هنا

حيث يُخفي بصمته أحسن، في الوضعيات الأكثر ابتذالا، في ثنايا الجسد والحركات الأكثر ذاتية للوجود"(شوفالييه وآخرون، 2013، ص ص.180-181).

يأخذ استخدام مفهوم المخيال الاجتماعي في الأدبيات العربية محمولا سلبيا في استعمالاته المتعددة، لكونه يشير إلى الصور الساذجة وغير المكتملة التي توجد عليها البنى الاجتماعية والتي لا تنظر للأشياء إلا من خلال هيمنة العقل الديني، والذي يمنع تمدد الهوية العقلانية في الفكر والخطاب المجتمعي والعلمي. هذه الصورة التي يحاول الكثير من المفكرين تقديمها عن المخيال الاجتماعي، إنما كانت تستهدف إشاعة الفكر الساذج لدى العامة، ووقوع النخب الدينية والمفكرة في منزلق تحريف النصوص والنظريات والوقائع في عالمنا الإسلامي، والذي ترى أن الحل يكمن في استبعاد الموروث الديني والتراثي(وهو ما يشتغل عليه الآن في مواقع التواصل الاجتماعي) الذي يمنع تفتح العقل نحو آفاق معرفية. ويسمي بعض الباحثين هذه العملية بتيار الأنسنة الذي شاع كثيرا لدى الفلاسفة والأنثروبولوجيون والمشتغلون بالحقل الثقافي في عالمنا العربي.

رابعا- الضوابط الإسلامية للمجال العمومي الافتراضي:

إن العمل الحقيقي الذي ينتظر نخب هذه الأمة، سواء كانوا حكاما، علماء، أكاديميين أو حكوميين، هو العمل على تأطير هذا الفضاء العمومي الجديد الذي يتشكل يوما بعد يوم، وكما تشير إليه الدراسات فهو من أكثر المجالات جذبا لمختلف الشرائح الاجتماعية. إن خاصية الفضاء العمومي الافتراضي كما أسلفنا ذكرها تتمثل في لا تجانسية أفراده وفئاته، حيث أن الجميع موجود فيه لأجل التبادل والتعلم والتأسي والترفيه، وإن كان التمايز الاجتماعي مفيدا في بعض الجوانب إلا أن هذه الحالة تقود إلى ضياع الضمير والعقل الديني والحكامي والعلمي، أمام تمدد العقل الساذج في شبكات التواصل الاجتماعي. فإن سلّمنا بتماثل الأفراد فإننا نزعنا بذلك الخاصيات النوعية التي يكونون عليها كمثل التعليم، السن، الجنس(ذكور-إناث)، أطفال، شباب، كهول، بطالون، عاملين، إطارات،... كل هذه الخواص تفرق الأفراد ولا تجمعهم. فخطورة أن يتداول طفل أو مراهق كتابات أو صورا أو أراء لا تناسب أعمارهم ونموهم العقلي قد يجرّ المجتمع والأسرة معه إلى خلل في التنشئة الاجتماعية. هذا المثال وغيره يستوقفنا عند الضوابط الإيتيقية التي ينبغي أن يتمأسس عليها الفضاء العمومي حتى يتلاءم والخواص الاجتماعية للأفراد.

-تعزيز المخيال الديني الذي لا بد أن يؤسس لكل فكرة ولكل ممارسة وعمل في المجتمع، وغياب هذا المخيال أو التشويش عليه ومن ثم تشويهه لدى المتلقي إنما يستهدف الحد من قدرته على ضبط سلوك الفرد ورُؤوِيَّته للعالم. وانطلاقا من هذا التصور نجد أن حضور القرآن في المجتمع التواصلي هو فقط

للمتعة لا غير، من خلال التركيز على جمالية الصوت التي تطرب النفس، كما أن حضور القرآن الكريم أو بعض آياته في الصفحات إنما هو تعبير للحالة النفسية والمزاجية التي يكون عليها الشخص الافتراضي، فإن كان في سعة من العيش أو منتصرا لقضية فستطغى على اختياراته للآيات، تلك المتعلقة بهذه القضية أو تلك. كما لا ننسى حضور الحديث النبوي أو البلاغة النبوية والأفعال الصحبية (صحابة الرسول "ص")، بحيث تدور هذه المعالم في فلك حيوية الحياة النفسية والاجتماعية التي يكون عليها الشخص. والصورة التي عرضناها تشبه كثيرا حالة الغيبوبة الاجتماعية التي يخبت فيها العقل ويختفي فيها الحضور الواعي أو التدبر"أفلا يتدبرون القرآن"(القرآن الكريم، سورة محمد، الآية24). فالقرآن كموجه ومحرك للحياة الإنسانية للمسلم يسعى الإعلام الإلكتروني إلى غرسه في المخيال الاجتماعي على أنه تعبير نفساني يُستقى منه، لأجل المواساة أو الاستسلام للقدر والقضاء. وهذا الأمر معاكس تمام للحقيقة القرآنية التي تستهدف التنوير والنهوض، ومن ثم البحث عن الأسباب الموجبة لهما. بكلام آخر إن تعزيز المخيال الديني يستهدف إيجاد حالة ديناميكية تسمح بالاندماج الاجتماعي الفاعل للإنسان المسلم "ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين"(القرآن الكريم، سورة الحج، الآية40)، وكلمة فسدت هنا تشير إلى الخمول والاستسلام والتخلي عن القضية والوظيفة التي ينبغي أن يؤديها المسلم في كل المجالات. وبدلا من أن يصبح فضاء التواصل الاجتماعي موطنا للذوات المنفردة، يصبح بالتالي منبتا وغراسة للمشروع المجتمعي الذي يضم هذه الذوات لأجل تحديد أفق المستقبل الذي ينتظر الأمة.

– تعمل الموضوعات المتبادلة في شبكات التواصل الاجتماعي على عطالة العقل الإسلامي بما تشيعه من صور الخمول والاتكال والتبعية والانفصال عن الواقع وحتى الاستقالة من الوظيفة الإنسانية، فتصوير الهزائم المتتالية للشعوب العربية والإسلامية على أنها حالة تاريخية مستمرة في الزمن، إنما يراد منها توكيد الوهن في المخيال الاجتماعي. من هنا ينبغي الحذر من الانقلاب الإيديولوجي الذي يعني إفراغ العقل المسلم من الوظيفة والرؤية الاستخلافية للكون إلى النزعة الاستهلاكية المادية. فالفضاء العمومي الافتراضي بقدر ما هو مجال غير مدرك، فهو في نفس الوقت يحمل تصورا نمطيا استمتاعيا بالحياة تطغى عليه الجمالية والمتاعية والاستحلال، والتزيين هذا في ما هو افتراض يتجه لدى المسلم إلى محاولة مطابقته بالواقع.

––إن المسلمين الذين يستخدمون الآيات القرآنية للاستدلال عليها عن حالتهم النفسية أو للتعبير عن وضع أو ظرف يعاني منه هو أو جماعته أو مجتمعه، إنما هم في حال من الأمية التي أخبر عنها الله في قوله تعالى "ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني"(القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية78). "وقد قال

ابن تيمية رحمة الله عليه: عن ابن عباس وقتادة رضي الله عنهما، في قوله تعالى (ومنهم أميون) أي غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظا، وقراءة، بلا فهم، لا يدرون ما فيها"(القديدي، 1995، ص.21). وهذه الصور والشواهد والأعلام والكلمات والآيات إنما هي تعبير عن الانسحابية من عالم الحس، وإرجائية رضيت بحالها وانتظرت قدرها من دون أن تكون قد جهزت نفسها لأجله. هذه الوضعية هي ما صنعت الفهم الديني الجديد المستشري في الفضاء الافتراضي وأوجدت مسوغات الاستسلام الحضاري ومن ثم أصبحت مرجعيتها في الشخصيات الساذجة والكتابات والأشعار والغناء الذي صرف الأمة عن واجباتها.

–إن المخيال الاجتماعي الذي يتشكل لدى الفرد أو الجماعة مرتبط بعملية التواصل الدائم بين المرسل والمستقبل، حيث يسعى الأول إلى إدامة وتكرار الصورة أو الرأي أو الفكرة وحتى السلوك، بحيث يصبح اعتياديا لا يعيه صاحبه.

وهذا الهدف هو في الواقع، أساسي لاستنساخ الهويات المراد إشاعتها في المجتمعات المسلمة. إن التحوّط الذي ينبغي أن نؤكده هنا على المتلقي المسلم هو ضرورة التمييز بين المستويات التي يجري فيها صياغة مخياله الاجتماعي، وذلك بالتعرف على منتجيه والذين نعتقد أنهم في المستوى الأول: قادة الأفكار وهم شخصيات وزعماء المجتمع. المستوى الثاني يتشكل من الصفوة (الأكاديمية، الاقتصادية، الثقافية، الدينية)، أما المستوى الأخير فهم من الجماعات غير المنظمة، والتي هي العامة والتي تتواصل في الفضاء العمومي من دون هدف مجتمعي واضح. وهذه الفئة منساقة ولديها القابلية للانجذاب لكل ما هو مبهر واستهلاكي. كما أن جميع الخطط والسياسات التي تجري في الدول المتقدمة خصوصا تلك التي تستحوذ على سلطة الانترنيت تسعى إلى الاشتغال على هذه الفئة من خلال عرض القضايا بسطحية، وإتباع إستراتيجية الإلهاء، والتخيل المفرط، وتعميم مبرمج للجهل حتى لدى الأوساط العلمية، وتكريس الخوف وثقافة اليأس وتثبيط القدرة على العمل والعلم. ومن شأن ذلك تعزيز الموات الحضاري للأمة المسلمة التي تنهار أمام حالة التدافع العالمي. فالبناءات الحضارية للدول المتقدمة، الحياة الحلم، التقدم التكنولوجي، لا تولّد لدى المسلم الطموح المطلوب لأجل الحركة التاريخية ولكن بالعكس من ذلك تصبح انفعاليته سلبية من حاله وحال الأمة، ما يقوده إلى اليأس ومن ثم جلد الذات والتوقف عند لحظة من التاريخ(الخلافة الإسلامية) كنوستالجيا وليس كمحفز.

–معاودة الاعتبار للمؤسسة الاجتماعية: الذي يعني ضرورة أن يكون المسلم منتميا لأهله وجماعته ومجتمعه يقول تعالى: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**"(القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية13)، فلا يكون الفرد منعزلا منسحبا عن ما

يشغل أهله وجماعته. وحالة الفردانية والتشرذم إنما هي خاصة بالمجتمع الرأسمالي الذي قوض المؤسسات الاجتماعية التي يستند عليها الفرد، ويتقوّم ويُنشَّئ عليها من الولادة وحتى الرشد. وقد أُريد تعميمها في المجتمع المسلم بدعوى التقدم والمدنية. فهذه المؤسسات كمثل العائلة والصحبة، الاقتصاد، المؤسسات الثقافية والنقابية، الجمعيات،... كلها تلعب دورا تكامليا، لأنها تغرس قيم الانتماء والانصهار في اللحمة الواحدة، وعندما يشعر الفرد بالانتماء فهو يتماثل مع هذه الجماعة روحا ومودة وثقة، وهي حصن أمين له، ويحصل ذلك عندما تخرج القيم والمعايير والأفكار من مرجعية دينية واحدة.

إن هذا الهدف الذي يعيد للمؤسسة مكانتها في سياق التنمية المجتمعية هو من بإمكانه تجاوز نواتج الثورة الاتصالية الجديدة التي هي في أصلها "ثورة في شتى مناحي الحياة بما فيها العمل والسياسة والثقافة والفن، حيث سيطرت على حياة الشعوب وأثرت في أفكارها ومؤسساتها"(الوز، 2012، ص ص.19-20).

-خلق ثقافة الحوار والتنشئة عليها، فسبحانه وتقول يقول في محكم تنزيله: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون لله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون"(القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية64). فالاعتراف بالتباين الثقافي لا ينبغي أن يُغلّف بثوب ديني أو عرقي، كما ينبغي أن تحكمه مبادئ الصدق والشفافية. كما أن للّغة التواصلية دور في إذكاء هذا الحوار وتهذيبه، والمشاركة الجماعية لكل الأفراد والجماعات حول الموضوعات والمشروعات التي تخدم الصالح العام.

- من الناحية الأخلاقية لا بد أن يكون موضوع التواصل مادة محترمة وتثقيفية، ومعتبرة للذكاء الإنساني وأيضا لتباين مستوياته، كما أن الشعور الثقافي والديني والقومي محبذ لأجل التبادل، كما أنه مطلوب من المسلم أن يتخلق بالأدب والحشمة وأدب الحوار مع غيره، فيقول رسول الله(ص) " قال ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله ليبغض الفاحش البذيء"(الترمذي، د.س، ص.614). ففي الحوار والجدال ليس المسلم مفردة منزوعة من هويتها الإسلامية، بل هو مطالب بتوصيل الصورة السمحة والمهذبة والمتسامية لدى جميع أعضاء الشبكة، وهذا الفهم يقودنا إلى فكرة المسلم الرسولي الذي يقع على عاتقه توصيلة وتبيان روحانيات الإسلام في تجلياته العقدية كما الإنسانية.

-ينبغي أن يؤدي الفضاء العمومي الافتراضي دورا في رفع مستوى الرأسمال الاجتماعي للمجتمع. وبكلام آخر إن التنمية البشرية لا يمكن لها أن تتحول إلى معيار لكفاءة المجتمع والدولة ما لم يتم ربطها بشكل واع ومنظم مع هذا الفضاء الافتراضي. ونجاح ذلك مرهون بالتعريف بالشخصيات الحقيقية للأفراد وليس الاختفاء وراء أسماء مستعارة. الاختفاء وراء الأسماء المجهولة هو في واقع الحال مشاركة ناقصة

تحجب الرؤية والمعرفة عن نوعية الموارد البشرية التي بإمكانها أو التي تتملك الكفاءة والمعرفة المناسبتين للمشاركة الفعالة في الفضاء الافتراضي.

–من المعلوم أن المخيال الاجتماعي يصطنع لدى الأفراد والجماعات روابط علائقية وشعورا بالانتماء إلى جماعة مرجعية واحدة، إلا أن هذا المفهوم يغيب في حال الفضاء العمومي الافتراضي حيث أن هذه الجماعة التي تقترن في المخيلة بالدين والتاريخ والزمن والحال، تصبح اليوم محددة بـ" الاهتمامات المشتركة التي تجمع معاً أشخاصا لم يعرف كلٌ منهم الآخر بالضرورة قبل الالتقاء إليكترونياً"(الراوي، 2012، ص.100).

– لا بد من إخبات إيديولوجية التفوق التي تقدمها شبكات التواصل الاجتماعي، والتي تكون إما على أساس العرق أو الحضارة أو المذهب وحتى اللغة. وهذه الحالة يمكن ملاحظتها في أثناء عرض وتبادل الكتب، وفي الاستشهاد بالأقوال لهذه الشخصية أو تلك وحتى في الصراع المذهبي أو الطائفي أو حتى العرقي، الذي ينحو منحى التفاضل التاريخي أو الظرفي. كما أن الانغلاق اللغوي (الإنجليزية – الفرنسية – الإسبانية) كوسيلة تواصل داخل الفضاء الافتراضي يحجب عن المتلقي المسلم دونية مصطنعة للغة العربية. فكيف تصبح اللغة الأجنبية هي وسيلة التواصل المفضلة بين المسلمين والذين يحسنون اللغة العربية؟ وهذا الأمر مقترن في واقع الحال بحالة الانهزام الهوياتي للمسلم الذي يرى في لغته نقصا علميا أو تواصليا يمنعه من التلقي.

–إيديولوجية التخلف الحضاري أو الموات الحضاري المبرمج: حيث أن المنجزات الغربية إن كانت مكتوبة أو إبداعية أو حضارية لا تُسوّق على أساس المنتج الإنساني العالمي الذي يخص كل الأمم التي تشاركت تاريخيا وحضاريا في إنجازه، ولكنه يقتصر على فئة العرق التي تنتج لنفسها من الناحية الرمزية النجاح، فيما يتعزز من الناحية السيكولوجية لدى المتلقي ذهنية الفشل والتخلف التي هي قاتلة للهوية المسلمة.

–يتحول الفضاء العمومي الافتراضي إلى ما يشبه سوق الأفكار، التي يعتقد المتبادلون فيه أنهم جاءوا لأجل التصارع والتنافس على الأفكار والمرجعيات والتراث. وهنا تبرز خاصية أخرى وهي تحول العامة إلى مساهمين في إنتاج الأدلجة والخطاب الذي يعم أكبر قدر من المشتركين، في نفس الوقت انكفأت النخب بمختلف أشكالها عن المساهمة والتفاعل المنتج داخل هذا الفضاء العمومي. وهذه الفوضى الافتراضية في حال مجتمعاتنا المسلمة لم تؤد إلا إلى تزايد العنف والعنف المضاد، وإلى تراجع مستوى ومضمون الخطاب الديني والعقلاني والعلمي الذي أصبح منتجا مسموعا يقتصر تأثيره على الأذن، دونما إيقاظ للروح المسلمة.

–أن تتكاتف جميع المؤسسات الأهلية والحكومية على حد سواء لتبصير المجتمع بأهمية ومضار هذه الوسائل على الفرد والجماعة

–المسؤولية الإسلامية الاجتماعية للفرد المسلم عن الفضاء العمومي الافتراضي: والتي تعني ضرورة الحفظ على الصورة الذهنية لدى المتلقين الذين يُتواصل معهم في شبكات التواصل الاجتماعي. فإذاعة الأخبار المكذوبة ونشر الشائعات وهز ثقة الإفراد والجماعات في معتقداته وفي المؤسسات الواقعية تمثل أخطارا تهدد الأمن المجتمعي.

خاتمة:

إن المقاربة التي سعينا إلى توضيحها في تحليلاتنا السابقة، تدعو اليوم النخب السياسية والدينية والأكاديمية إلى الاهتمام بإشكالية جديدة تعرض على بساط البحث العلمي وهي أخلقة الفضاء العمومي الافتراضي. فواقع المجتمعات الإسلامية التي تتبدى فيها الأمية والعنف، والتخلف، والانحراف يفترض الحذر مما تعرضه شبكات التواصل الاجتماعي خصوصا وتكنولوجيات الاتصال الحديثة عموما. فشيوع الفكر الساذج وانفصال الهويات الفردية والجماعية عن مرجعياتها الدينية والثقافية، وانفصال النخب المثقفة والشبابية عن واقعها تكون عواقبه خطيرة على الأمن الاجتماعي للمجتمع والدولة على حد سواء. من هذا المنطلق نعرض حلولا لهاه الإشكالية على اتجاهين: الأول يسير في اتجاه تعزيز المخيال الاجتماعي بكل المعتقدات والتصورات الدينية خاصة التوحيدية، والمحتفية بشخصياتها الإسلامية والعُلَمَائية والسياسية، ....والمتعلقة بموروثاتها الدينية والثقافية واللغوية، وهذه المهمة موكلة للمؤسسات الإسلامية الحكومية منها والأهلية وللمنظومة التعليمية. أما الاتجاه الثاني فهو موكل لجميع الأفراد المشكلين للمجتمع المسلم في شكله القومي أو العام، إذ يناط بالأجهزة الحكومية والمؤسسات الإقليمية العربية والإسلامية مهمة التشريع الأخلاقي لكيفيات الاستخدام الآمن لوسائل التواصل الاجتماعي، كما يناط بها إنشاء شبكات تواصل عربية يديرها وتقوم عليها مؤسسة جامعة لصفوة من العلماء والسياسيين والنخب تعمل على استقطاب المسلمين وغير المسلمين إليها.

قائمة المراجع:

أولا – المصادر والمراجع باللغة العربية:

– القرآن الكريم

– الراوي، بشرى جميل.(2012). دور مواقع التواصل الاجتماعي في التغيير/مدخل نظري، مجلة الباحث الإعلامي،(17)، العراق: جامعة بغداد. كلية الإعلام.

– القديدي، أحمد.(1995).الإسلام وصراع حضارات، ط1، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

– الوز، هزوان.(2012).الإعلام أدوار وإمبراطوريات. دمشق: منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب. وزارة الثقافة.

– شوفالييه ستيفان وشوفيري كريستيان.(2013). معجم بورديو، ترجمة: الزهرة إبراهيم، ط1، الجزائر– دمشق: الشركة الجزائرية السورية للنشر والتوزيع.

– محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي.(د.ت). الجامع الصحيح سنن الترمذي، الجزء الرابع، باب ما جاء في حسن الخلق، مراجعة : أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دون سنة.

– مناد، سميرة. (جويلية– ديسمبر2005).الزعامة النسوية في المخيال الاجتماعي. دراسة ميدانية لتصور الزعامة لدى عينة من النساء بالجزائر. مجلة إنسانيات، (عدد مزدوج 29–30)، وهران: مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية.

ثانيا– المراجع باللغة الأجنبية:

-Bourdieu, Pierre.(1982). «La force de la représentation», Ce que parler veut dire. Paris: Fayard.

Habermas, Jurgen.(2006). l'espace public. Paris: Payot,.

-Habermas, Jurgen (1993[1962]). L'espace public Archeologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise. Paris: Payot.

ثالثا – المواقع الإلكترونية:

– العلوي، رشيد. (2014). الفضاء العمومي من هابرماس إلى نانسي فريزر. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث (قسم العلوم الإنسانية والفلسفة). متوفر على الرابط:

http://www.mominoun.com/articles/851

- Castoriadis, Cornelius.(1986). « Développement et « rationalité » » in Domaines de l'Homme. - In Premat, Christophe. (2002). « L'analyse du phénomène bureaucratique Paris : du Seuil. p.136. chez Castoriadis », Tracés. Revue de Sciences humaines [En ligne], mis en ligne le 11 mai 2009, consulté le 11 octobre 2012. URL : http :// traces.revues.org/4131 ; DOI : 10.4000/traces.4131

- Dacheux, Eric. (2000). L'espace public: la théorie confrontée aux pratiques militantes. "Vaincre l'indifférence, le rôle des associations dans l'espace public européen",<sic 00000265> en ligne « http://archivesic.ccsd.cnrs.fr/sic 00000265 »

- Habermas, Jurgen.(Automne 1992). "L'espace public", 30 ans après. In: Quaderni. (N.18). Les espaces publics. En ligne : http://www.persee.fr/doc/quad_0987-1381_1992_num_ 18_ 1_977. Consulter le 02/06/2017 a 21h :28.

Press. Taylor, Charles.(2004) Modern Social Imaginaries, Durham et Londres : Dukes University p2. In : Hulak, Florence. (2010). « Que permet de penser le concept d'imaginaire social de Charles Taylor?»,Philosophiques. (vol.37). n°2, En ligne: [http://id.erudit.org /iderudit/ 045189ar], Consulter le 04/05/2017 a 22h :48